الهِمَّة

طَرِيقٌ إلى القِمَّةِ

الدكتور
محمد موسى الشريف

دار ابن كثير

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا هبت رياحك فاغتنمها

فإن الخافقاتِ لها سكونُ

وإن ولدت نياقُك فاحتلبها

فلا تدري الفصيلُ لمن يكونُ

قال حكيم من الحكماء:

«لما كنت حَدَثاً كنت أتصور أن الرعد هو الذي يقتل الناس، فلما كبرت علمت أن البرق هو الذي يقتل، ولهذا عزمت من ذلك الحين على أن أُقِلّ من الإرعاد وأكثر من: الإبراق».

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله موفق من شاء بما شاء، والصلاة والسلام على خير الرسل والأنبياء، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه البررة الكبراء، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث والجزاء، وبعد: فهذه هي الطبعة الرابعة من هذا الكتاب، ولله الحمد والمنّة على ما وفَّق ويسَّر.

وقد سرت في هذه الطبعة على المنهج العلميّ «الأكاديميّ» في ترجمة الأعلام، والفهارس المتعددة، إضافة إلى ما كان في الطبعات السابقة منها.

وقد خاطبني بعض إخواني أن أوسع الكتاب قليلاً حتى يكون كالكتب الأخرى التي صُنفت في شأن الهمّة ـ وهذا الكتاب هو أولها صدوراً فيما أعلم ـ لكني آثرت أن يكون كما أردت له أن يكون: دليلاً للمبتدي المؤتسي وتذكرة للمنتهي الألمعي.

والله أسأل كمال التوفيق، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

وصلِّ اللهم على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

محمد بن موسى الشريف

ص.ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

MMALSHAREEF@Yahoo.COM

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، وصلاةً وسلاماً تامَّين كاملين عطرين على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فهذه الطبعة الثالثة ـ ولله الحمد ـ من كتاب «الهمّة»، وقد تميزت عن الطبعتين السابقتين بزيادات كثيرة متنوعة، أهمها في نظري ما أوردته عن حال الغربيين في بداية القرن التاسع عشر وما بعده، وذلك إبان ثورتهم الصناعية الكبرى، وما كان بعضهم عليه من همة عالية، ولم أقصد بذلك تمجيدهم ـ حاشا وكلا ـ ولكني قصدت إظهار أنه من سنّة الله في الكون أن يكافئ المُجِدَّ المجتهد العامل الساعي في الدنيا ويُنيله مرادَه مسلماً كان أو كافراً، أما الآخرة فلا يكافئ بها إلا من كان قد اجتهد لوجهه الكريم.

ولما كان بعض أهل الغرب قد بذل وعرق ونصب وتعب في سبيل رفعة قومه، فقد أحببت أن أورد بعضاً من تلك الأخبار والأقوال حتى تكون حافزاً ـ هي وما سبق أن سقته ـ لبني ديني لأن ينفضوا غبار الذل والضَّعَة عنهم حتى يبزغ لهم ـ بإذن الله تعالى ـ فجرٌ جديد.

ثم إن أهل الهمّة العالية منهم لم يفوقوا في ذلك أسلافنا، بل هم قد سبقوهم سبقاً عظيماً، ولكن لما اقتربت حوادثهم من عصرنا، وحققوا بهممهم تلك ما نراه من مخترعات وتقنيات، ساغ لي أن أورد

بعض أخبارهم على أنها من جملة ما يحسن بنا اتباعه والأخذ به من الحكم وتجارب الأمم، والله أعلم.

هذا، ووصيتي لكل من يقرأ هذا الكتاب أن يأخذ نفسه بإرشاداته، ويعمل ما في وسعه ليتشبه بهمة وجدّ وعزيمة أولئك الرجال الذين ذكرت أخبارهم وأحوالهم، فإنه إن صنع ذلك يُرجى له الفلاح والسعادة، وتمام الأمر والسيادة، والله المستعان.

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الخلق واصطفى منهم المؤمنين، ودلهم على ما فيه سعادتهم بقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، الذين أضاؤوا بهمتهم العالمين.

أما بعد: خلق الله سبحانه وتعالى الخلق وقدَّر فهدى، فكان من تقديره تعالى أن قسَم لهم حظوظهم من الدين والعقل والغنى والجمال، وكان مما قسمه الله سبحانه وقدّره على كل إنسان ـ أيضاً ـ حظُّه من الهمّة والإرادة.

والبشر يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في هذا الأمر، فمنهم من تعلو به همته حتى يكاد يبلغ حدود الكمال، ومنهم من تسفل به همته حتى يصبح حاله أسوأ من الدواب، وبين ذلك من المراتب ما لا يدخل تحت الحصر، وما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وإذا تَقرر ذلك فاعلم أن أمر الهمّة عظيم، وشأنها خطير، يجدر بالإنسان المسلم أن يفهمه ويعتني به، ويحدث به نفسه دائماً عسى أن يكون من أهل الهمّة العالية فيفوز فوزاً عظيماً.

---

(١) الأعراف: ١٧١.

وفي هذه الوريقات ـ التي أسأل الله تعالى أن يباركَ فيها ويضعَ لها القَبول ـ مباحثُ لا تخلو من جدَّة، توضح معنى الهمّة وكيفية تحصيلها وتطويرها إلى غير ذلك من المعاني المهمة، والمطالب التي تعلو بصاحبها إلى القمة.

ولا يستصغرنّ إنسان شأن الهمّة فيسأل مستنكراً: هل هذا الموضوع يستحق أن يفرد له بحثٌ، وأن توضع له قواعد ومحاذير؟!

نعم والله الذي لا إله إلا هو، إن للهمة لشأناً عظيماً وتأثيراً كبيراً على حياة صاحبها سواء أكان في سن الشباب أم تعداه، ممن يطلب الدنيا أم من طلاب الآخرة، فهي أساس حياة الإنسان، والقطب الجاذب له إلى العزة أو الهوان.

ولا يُستغرب ـ أيضاًـ لإيرادُ هذا المبحث ويُقال: إن الكتب التي دلت على أهمية الوقت ودلَّلت على قيمته يستغنى بها عن هذا المبحث؛ إذ الوقت يستثمره حق الاستثمار من علت همته، وعرف كيف يستفيد بها ومنها، وكتب الاستفادة من الوقت ومعرفة قيمته أمر آخر غير مباحث الهمّة كما سيرى القارئ، إن شاء الله تعالى.

وإن مما دعاني لتأليف هذا المبحث ندرة من تكلم فيه وأوضحه، ولم أرَ فيه مصنفاً مستقلاً، ولا أزعم أني أعطيته حقّه، ولكني حاولت دخول هذا المضمار والتطفُّل على هذا الشأن، والله المسؤول بالإتمام وعليه التكلان.

معنى الهمّة

جاء في القاموس: (هـ م م): «ما هُمَّ به من أمر ليُفعل».

فالهمّة هي الباعث على الفعل، وتوصف بعلو أو سفول، فمن الناس من تكون همته عالية علو السماء، ومنهم من تكون همته قاصرة دنيئة سافلة تهبط به إلى أسوأ الدرجات.

وعرف بعضهم علو الهمّة فقال: «هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور»[١].

قال ابن القيم[٢] رحمه الله تعالى، واصفاً الهمّة العالية: «علو الهمّة ألا تقف (أي النفس) دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه ولا تبيع حظها من الله وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية.

فالهمّة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهمّة كلما

(١) «رسائل الإصلاح»: ٢/ ٨٦.

(٢) هو الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعيّ الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي، ولد سنة ٦٩١. وكان جريء الجنان، واسع العلم، كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد، توفي بدمشق سنة ٧٥١ رحمه الله تعالى، وكانت جنازته حافلة. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١-٢٣.

علت بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان»[١].

وقد حذر السلف كثيراً من سقوط الهمّة وقصورها، فقد قال الفاروق عمر رضي الله عنه: «لا تُصَغِّرَنّ همتك، فإني لم أرَ أَقْعَدَ بالرجل من سقوط همته»[٢].

وقال ابن نُباتة[٣] رحمه الله تعالى:

حاول جَسيمات الأمور ولا تَقُل
إن المحامد والعُلى أرزاقُ

وارغب بنفسك أن تكون مقصراً
عن غاية فيها الطِّلاب سِباقُ[٤]

وقد قيل: «المرء حيث يجعل نفسه، إن رفعها ارتفعت، وإن قصر بها اتّضعت»[٥].

وقال شاعرُ بني عامر:

إذا لم يكن للفتى همة
تبوئه في العلا مصعدا

---

(١) «مدارج السالكين»: ٣/ ١٧١.
(٢) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٥.
(٣) شاعر العراق، أبو نصر، عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نُباتة السَّعْديّ، له نظم عذب، ومدح الملوك والكبراء، وله ديوان كبير، مات سنة ٤٠٥وهو في عشر الثمانين. انظر«سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٢٣٤ـ ٢٣٥.
(٤) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٥.
(٥) المصدر السابق.

ونفس يعودها المكرمات، والمرء يلزم ما عُوِّدا
ولم تَعْد همته نفسهُ فليس ينال بها السؤدُدا[(١)]

وقد ذمّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: «هو عبد البدن، حُرُّ الثياب، عظيم الرُّواق، صغير الأخلاق، الدهر يرفعه وهمته تضعه»[(٢)].

وقال أبو دُلَف[(٣)]:

وليس فراغ القلب مجداً ورفعة ولكنّ شغلَ القلب للهمِّ رافعُ
وذو المجد محمول على كل آلة وكل قصير الهمِّ في الحيّ وادعُ[(٤)]

والهمّة قسمان: وهبية، وكسبية: فالوهبية هي ما وهبه الله تعالى للعبد من علو الهمّة أو سفولها، ويمكن أن تنمى وتُرعى أو تهمل وتترك، فإن نماها صاحبها وعلا بها صارت كسبية، أي أن صاحب الهمّة كسب درجات عالية لهمته، وزاد من أصل مقدارها الذي وهبه الله

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٤٧.
(٣) صاحب الكَرْج وأميرها القاسم بن عيسى العجلي، كان فارساً شجاعاً مهيباً، سائساً، شديد الوطأة، جواداً مُمَدّحاً، مبذراً، شاعراً مجوداً، وولي إمرة دمشق للمعتصم، وله أخبار في الكرم والفروسية، توفي في بغداد سنة ٢٢٥. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٥٦٣-٥٦٤.
(٤) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٧.

تعالى إياه، وإن تركها وأهملها ولم يلتفت إليها خَبَتْ وتضاءلت، والهمّة في هذا تشترك مع باقي الصفات العقلية والخلقية كالذكاء وقوة الذاكرة وحسن الخلق وغير ذلك مما هو معلوم بَدَهِيّ.

قال ابن الجوزي(١) رحمه الله تعالى: «وقد عرفتَ بالدليل أن الهمّة مولودة مع الآدميّ، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا حُثَّت سارت، ومتى رأيت في نفسك عجزاً فَسَلِ المنعم، أو كسلاً فالجأ إلى الموفِّق، فلن تنال خيراً إلا بطاعته، ولايفوتك خيرٌ إلا بمعصيته»(٢).

❁ ❁

(١) الشيخ الإمام الحافظ المفسر أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، ابن الجوزيّ، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولد سنة تسع أو عشر وخمسمئة ببغداد، وسمع من مشايخ كثيرين، وكان رأساً في التذكير بلا مدافع، وصنف مصنفات كثيرة في بعضها أوهام وأخطاء بسبب عدم التحرير والمراجعة، وله حكم كثيرة وأقوال شهيرة، توفي سنة ٥٩٧ ببغداد. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٦٥-٣٨٤.

(٢) «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد»: ٤٥.

مراتب الهمم

الناس متفاوتون في أمرين:

الأمر الأول: مطالبهم وأهدافهم.

والآخر: الهمم الموصلة إلى هذه المطالب والأهداف.

فمن الناس من يطلب المعالي بلسانه وليس له همة في الوصول إليها، فهذا متمنٍّ مغرور.

وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ومن أعظم المغالبات مغالبة النفس لتصبح ذات همة عالية.

ومن الناس من لا يطلب إلا سفاسف الأمور ودناياها، وهم فريقان:

- فريق ذو همة في تحصيل تلك الدنايا، فتجده السبَّاق إلى أماكن اللهو ومغاني الغواني، وهذا إن اهتدى يكن سبَّاقاً إلى المعالي، ذا همة عالية نفيسة: «**الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إن فقهوا**»[1].

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

ـ وفريق لا همة له، فهو معدود من سقط المتاع، وموته وحياته سواء، لا يُفتقد إذا غاب، ولا يُسأل إذا حضر.

إنـي رأيـت مـن الـمـكـارم حـسـبـكـم
أن تـلـبـسـوا خَـزَّ الـثـيـاب وتـشـبـعـوا
فـــإذا تـــذوكِـــرتِ الـــمـــكـــارم مـــرّةً
فـي مـجـلـس أنـتـم بـه فـتـقـنـعـوا[١]

ومن الناس من تسمو مطالبه إلى ما يحبه الله ورسوله ﷺ، وله همة عظيمة في تحصيل مطالبه وأهدافه فهنيئاً له.

وبين كل هذه الأقسام مراتب كثيرة متفاوتة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفساً وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً من لذتهم في معرفة الله ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه»[٢].

وقال ابن القيم أيضاً: «ولله الهمم ما أعجب شأنها وأشدّ تفاوتها!، فهمة متعلقة بالعرش، وهمة حائمة حول الأنتان والحُش[٣]»[٤].

يتفاوت الناس في هممهم فتتفاوت على هذا أعمالهم وحظوظهم

(١) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٧.
ومعنى تقنعوا: غطوا وجوهكم أي خجلاً، وتواروا لأنكم لستم من أهلها.
(٢) «الفوائد»: ١٩٦ـ١٩٧.
(٣) بيت الخلاء.
(٤) «مدارج السالكين»: ٣/ ١٤٧.

ودرجاتهم، وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمي[١] رضي الله عنه وقد قال رسول الله ﷺ: «سَلْ».

فقال: «أسألك مرافقتك في الجنة»[٢].

وكان بعض الناس يسأله ما يملأ بطنه أو يواري جلده.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا تسألني من هذه الغنائم التي يسألني أصحابك»**؟.

قلت: أسألك أن تعلمني ما علمك الله.

فنزع نمرةً كانت على ظهري فبسطها بيني وبينه حتى كأني أنظر إلى النمل يدب عليها فحدثني، حتى إذا استوعبت حديثه قال: **«اجمعها فصُرها إليك»**، فأصبحت لا أسقط حرفاً مما حدثني[٣].

فاكتسب رضي الله عنه بهمته في الطلب مجداً عظيماً، وهو أنه حفظ للناس أحاديث رسولهم ﷺ، فأصبح حافظ الصحابة بلا منازع، بل أصبح راوية الإسلام.

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني[٤] لغلامه: «يا غلام! لا يكن

---

(١) ربيعة بن كعب بن مالك الأسلميّ، أبو فراس المدنيّ، من أهل الصُّفّة، توفي سنة ٦٣بعد موقعة الحرّة، رضي الله عنه. انظر «التقريب»: ٢٠٨.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة: باب فضل السجود والحث عليه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في«الحلية»: ١/ ٣٨١.
والحديث مروي بنحو هذا اللفظ في صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد وغيرهم رحمهم الله تعالى.

(٤) الشيخ الإمام، العالم، الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام، عَلَم الأولياء، محيي الدين، أبو محمد، عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيليّ الحنبلي، شيخ بغداد، ولد بـ«جيلان» سنة ٤٧١، له الكرامات العجيبة والمواعظ =

همك ما تأكل وما تشرب، وما تلبس وما تنكح، وما تسكن وما تجمع، كل هذا همٌّ النفس والطبع فأين همُّ القلب؟! همك ما أهمك فليكن همك ربك عز وجل وما عنده»[١].

وهذه ـ والله ـ من أعظم الوصايا للدعاة حتى لا تضعف همتهم أمام المغريات، لا سيما وأن من أهم صفات الداعية مخالطته للناس والتأثير عليهم، فكم من داعية انزلق في بحر هذه المغريات حتى أضحت الدعوة آخر اهتماماته.

ليس المروءة أن تبيت مُنعّماً
وتظل معتكفاً على الأقداح
ما للرجال والتنعم إنما
خلقوا ليوم كريهة وكفاح[٢]

وأما أمر ابن عباس رضي الله عنه مع صاحبه الأنصاري فهو دليل على تفاوت الهمم واختلاف مراتبها فقد قال رضي الله عنه: «لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل: هلم فلنتعلم من أصحاب النبي ﷺ فإنهم كثر.

فقال: العجب ـ والله ـ لك يا بن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من ترى أصحاب رسول الله ﷺ؟!

= المؤثرة، وقد تاب على يديه خلق كثير، عاش تسعين سنة، وتوفي سنة ٥٦١ ببغداد رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٣٩ ـ ٤٥١.

(١) إحياء فقه الدعوة، الراشد، مجلة المجتمع: ١٣٦.

(٢) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٨٨.

فركبت ذلك وأقبلت على المسألة وتَتَبُّع أصحاب رسول الله ﷺ، فإن كنت لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله ﷺ فأجده قائلاً، فأتوسد ردائي على باب داره تسفي الرياح على وجهي حتى يخرج إليّ، فإذا رآني قال: يا بن عم رسول الله ﷺ ما لك؟

قلت: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك.

فيقول: هلا أرسلت إليّ فآتيك؟

فأقول: أنا كنت أحق أن آتيك.

وكان ذلك الرجل يراني، فذهب أصحاب رسول الله ﷺ وقد احتاج الناس إليّ، فيقول: أنت أعلم مني»[١].

وترى اليوم من تفاوت الهمم أمراً عجيباً، فإذا استثنى الناظر في أحوال الناس أمر العامة ـ واستثناؤهم واجب لأنه قد ماتت هممهم، وقعدت بهم عن تحصيل معالي الأمور ـ واطلع على أحوال الخاصة وهم: الدعاة، وطلاب العلم، وباقي الملتزمين الحريصين على دينهم، سيصاب بالدهشة لما يراه من فتور الهمّة، وأنها الشأن الغالب على الخصوص الذين ذكرتهم: فمنهم من إذا اطَّلع ساعة أو ساعتين في اليوم ظن أنه قد أتى بما لم يأتِ به الأوائل، ومنهم من إذا خرج لزيارة فلان من الناس بقصد الدعوة يظنّ أنه قد قضى ما عليه من حق يوميّ، ومنهم من تتغلب عليه زوجة وعيال فيقطع عامة وقته في مرضاتهم، ومنهم من اقتصر في تحصيل العلم على سماع بعض الأشرطة وحضور

(١) قال في «مجمع الزوائد» ٩ / ٢٨٠: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

محاضرة أو اثنتين في الأسبوع أو الشهر، ومنهم من غلب عليه الركون إلى الدنيا والتمتع بمباحاتها تمتعاً يُفضي به إلى نسيان المعاني العلية، ومنهم من يقضي عامة يومه متتبعاً لسقطات إخوانه، ومطلعاً على ما يزيد علمه رسوخاً في هذا المجال.

وهكذا يندر أن تجد إنساناً استطاع أن يعلو بهمته، ويجمع شمله، ويَقْصر من الاعتذارات والشكايات فتصبح حياته مثلاً أعلى يُحتذى به.

ولا أزعم أن جمهور الصحوة قد فات عليه هذا الأمر ـ أي أمر الهمّة وعلوها ـ ولكن أقول جازماً بأنه ـ إلا القليل ـ لم يستثمروا هممهم حق الاستثمار، ولم يحاولوا أن يرتقوا بأنفسهم حق الارتقاء.

يقول الأستاذ المودوديّ رحمه الله تعالى مخاطباً قوماً ممن ذكرناهم آنفاً: «إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نار متّقدة تكون في ضرامها ـ على الأقل ـ مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً ولا تدعه حتى تجرّه إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده فتقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي.

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم، وتعمر قلوبكم بالطمأنينة، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد، وتستقطب عليها جهودكم وأفكاركم بحيث إن شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتماماتكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين.

وعليكم بالسعي ألا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة.

وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم، فإنكم لا تقدرون أن تحرِّكوا ساكناً بمجرد أقوالكم. . .

الحقيقة أن الإنسان إذا كان قلبه مربوطاً بغايته، وفكره متطلعاً إليها، فإنه لا يحتاج إلى تحريض أو دفع. . .

واسمحوا لي أن أقول لكم: إنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبردَ من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وأمهاتكم فإنكم لابد أن تبوؤوا بالفشل الذريع»(١).

أرأيتم همة الإمام رحمه الله، ولا غرو أن تخرج هذه اللآلئ من رجل تصدى طيلة حياته المباركة لهموم دعوة الخلق إلى الحق، حتى أنه كان يصدر دورية بنفسه لا يشاركه فيها أحد ـ وكان هذا في مقتبل حياته ـ فهو الناشر ومدير التحرير والموزِّع، وقد أخبر عن نفسه بأنه يبل الخبز اليابس في النهر ثم يأكله، وحياته تصلح أن تكون تطبيقاً لما أوردته عنه آنفاً، رحمه الله.

«**ويمكن بعد هذا أن نقول: إن مراتب الهمم متفاوتة فيما يلي**:

١ـ همة لا تسعف صاحبها لقضاء حوائجه الأساسية بل يظل عامة ليله وسحابة نهاره في نوم وتراخ وكسل، وهذه أدنى درجات الهمم ـ والعياذ بالله ـ وصاحبها عاجز قاصر يعتمد على الناس اعتماداً كلياً، وهذه المرتبة قليلة في النوع الإنسانيّ، ولله الحمد.

ومن أمثلتها في الناس الطفيليون، وطبقة التنابلة المشتهرين في التاريخ بكسلهم وسقوط هممهم.

---

(١) «تذكرة دعاة الإسلام»: ٥٨.

٢ـ ومن الهمم همة ترقى بصاحبها إلى قضاء الحوائج والسعي في الأرض وأداء الفروض، ولكن كل هذا يقضيه بقدر بحيث يستصعب معه كثيراً من الأمور، ويعتقد استحالتها وهي أمور ممكنة التحقق عند غيره، وتجده ـ عند الاستشارة ـ كثير الصد قريب القصد.

وهذه المرتبة من الهمّة يشترك فيها كثير من الناس إن لم نقل أغلبهم.

٣ـ ومن الناس من يريد الارتفاع بهمته ولكنه لا يعرف سبل استثمارها ولا كيفية الاستفادة التامة منها، فتجده متذبذباً في أموره، فتارة ينجز أموراً عظيمة، وتارة يستصعب الممكن ويستبعده.

والغالب على أهل هذه المرتبة أنهم لا يحققون ما يصبون له ويتطلعون إليه.

٤ـ ومن الناس من تتجاوز به همته واقع الناس بكثير وتتعداه، بل تكاد تستسهل المستحيل ولا تخضع له.

وصاحب هذه الهمّة نادر في دنيا البشر، ولكنه موجود معروف، يعرفه الناس ويقتدون به، والغالب على صاحب هذه الهمّة أنه يحقق أهدافه وغايته، بل يحقق أموراً تحتاج في تصور معظم الناس إلى فريق من العاملين لإنجازها.

قال أبو الطيب المتنبي[1] رحمه الله تعالى:

---

(١) شاعر الزمان، أبو الطيب، أحمد بن حسين بن حسن الجُعفيّ الكوفيّ الأديب، الشهير بـ«المتنبي»، ولد سنة ٣٠٣، وأقام بالبادية يقتبس اللغة والأخبار، وكان من أذكياء عصره، بلغ الذروة في النظم، تنبأ فافتضح وحبس دهراً ثم تاب، قتل سنة ٣٥٤ رحمه الله تعالى.
انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ١٩٩-٢٠١.

لـه هـمـم لا مـنـتـهـى لـكـبـارهـا
وهـمـتـه الـصـغـرى أجـلّ مـن الـدهـر

وقال أيضاً:

عـلـى قـدر أهـل الـعـزم تـأتـي الـعـزائـم
وتـأتـي عـلـى قـدر الـكـرام الـمـكـارم
وتـعـظـم فـي عـيـن الـصـغـيـر صـغـارهـا
وتـصـغـر فـي عـيـن الـعـظـيـم الـعـظـائـم

وقال أيضاً:

تـجـمـعـت فـي فـؤاده هـمـم
مـلءُ فـؤاد الـزمـان إحـداهـا

وقال آخر:

صـدرٌ رحـيـبٌ لـمـا يـأتـي الـزمـان بـه
وهـمـة تَـسَـع الـدنـيـا ومـا تَـسَـعُ

وقال أبو فراس[1]:

تـهـون عـلـيـنـا فـي الـمـعـالـي نفوسُـنـا
ومن يـخـطـب الـحـسـنـاءَ لـم يُـغْـلِـه الـمـهـرُ[2]

---

(١) الأمير، الحارث بن حمدان التَّغْلبي الشاعر المُفْلِق، كان رأساً في الفروسية والجود وبراعة الأدب، أسرته الروم جريحاً فبقي في القسطنطينية أعواماً، ثم فداه سيف الدولة، وكانت له مَنْبِج، بلدة بجوار حلب، ثم تملك حمص، ثم قتل سنة ٣٥٧ عن ٣٧ سنة. انظر المصدر السابق: ١٦/ ١٩٦ـ١٩٧.

(٢) النصوص الشعرية السابقة من «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٥ـ٤٤٧.

أهمية علو الهمّة في حياة المسلم

يقول ممشاد الدينوريُّ[(١)]: «همتك فاحفظها؛ فإن الهمّة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها صلح له ما وراء ذلك من الأعمال»[(٢)].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «لا بد للسالك من همة تسيِّره وترقيه، وعلم يبصِّره ويهديه»[(٣)].

وقال الشيخ أحمد بن إبراهيم الدرعيّ[(٤)]: «كن رجلاً رجله في الثرى وهمه في الثريا، وما افترقت الناس إلا في الهمم، من علت همته علت رتبته، ولا يكون أحدٌ إلا فيما رضيت له همته»[(٥)].

وقد أسلفتُ بأنها عمود أمر الإنسان والأمر المهم في دنياه، ولكن سأفصّل ما أجملت بما يلي:

---

(١) وردت ترجمة له في«حلية الأولياء»: ١٠/ ٣٥٣-٣٥٤ اقتصر فيها على ذكر أقواله وحكمه.

(٢) «إحياء فقه الدعوة» للأستاذ الراشد، مجلة المجتمع: ١٣٦.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١.

(٤) الزاهد العابد، ولد عام ١٠٠١، وتوفي عام ١٠٥٢، له حكم ومواعظ: انظر«نشر المثاني»: ٢/ ٢٢.

(٥) المصدر السابق.

أولاً: تحقيق كثير من الأمور مما يعده عامة الناس خيالاً لا يتحقق:

وهذا الأمر مشاهد معروف عند أهل الهمم؛ إذ يستطيعون ـ بتوفيق الله لهم أولاً، وبهمتهم ثانياً ـ إنجاز كثير من الأعمال التي يستعظم بعضَها من قعدت به همته ويظنها خيالاً.

وأعظم مثال على هذا سيرة المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم؛ إذ المعروف عند أهل التواريخ أن بناء الأمم يحتاج إلى أجيال لتحقيقه، لكنه ﷺ استطاع بناء خير أمة أخرجت للناس في أقلَّ من ربع قرن، واستطاعت هذه الأمة أن تنير بالإسلام غالب الأجزاء المعروفة آنذاك، وجهاده ﷺ وعمله وهمته العالية في بناء الأمة أمرٌ معروف، وهو مما تقاصر عنه أطماع أهل الهمّة العالية وخيالاتهم وما يتطلعون إليه.

والصدِّيق رضي الله عنه استطاع ـ في أقل من سنتين ـ أن يخرج من دائرة حصار المرتدين، ولم يمت إلا وجيوشه تحاصر أعظم إمبراطوريتين في ذلك الوقت، هذا وقد نهاه كبار الصحابة عن حرب المرتدين وظنوا أنه لا يستطيع أن يقف في وجه العرب كلهم، ولكن همته العالية أبَتْ عليه ذلك واستطاع أن ينجز ما ظنه الناس خيالاً لا ينجز.

وقس على هذا أمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى إنه من عظمة همته في طلب الحق قال له علي رضي الله عنه:

«لقد أذللت الخلفاء من بعدك يا أمير المؤمنين»[١].

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي.

ويصلح أن يكون أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز مثالاً يستضاء به لطالب الهمّة العالية، إذ أنه حاول إرجاع الناس إلى ما كان عليه الصدر الأول، ولقد حقق كثيراً من النجاح، رحمه الله.

وهناك أمثلة كثيرة مبثوثة في التواريخ، ولكن لنقترب قليلاً من عصرنا، ونحلِّق قريباً من ديارنا، ولنضرب مثلين على علو الهمّة لا أكاد أجد لهما ـ فيما أعلم ـ نظيراً:

أما أحدهما فشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي استطاع في مدة وجيزة إخراج مجتمعه من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد بهمة وعزيمة نادرتين.

وأما الآخر فالإمام حسن البنا رحمه الله؛ إذ كانت حياته مثلاً جميلاً لعلو الهمّة، ومن أراد الإنصاف فليراجع «مذكرات الدعوة والداعية»، و«رسائله» التي تفوح بعلو الهمّة وقوة الإرادة، وكيف لا يكون كذلك وقد كان يخاطب أتباعه بقوله «أحلام الأمس حقائق اليوم، وأحلام اليوم حقائق الغد».

وأضرب ـ في الختام ـ مثلاً بهمة أحد الكافرين حتى نعتبر ونتعظ، فنحن أولى منه بعلو الهمّة وقوة الإرادة، وهذه القصة حكاها الدكتور توفيق الواعي حيث قال حفظه الله: «أرسلت الدولة اليابانية في بدء حضارتها بعوثاً دراسية إلى ألمانيا كما بعثت الأمة العربية بعوثاً، ورجعت بعوث اليابان لتحضر أمتها، ورجعت بعوثنا خاوية الوفاض!! فما هو السر لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة.

يقول الطالب الياباني «أوساهير» الذي بعثته حكومته للدراسة في ألمانيا:

لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني الذي ذهبت لأدرس عليه في جامعة هامبورج لما وصلت إلى شيء، كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، كنت أحلم بأن أتعلم كيف أصنع محركاً صغيراً، كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى «موديل» هو أساس الصناعة كلها، فإذا عرفت كيف تصنع وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها، وبدلاً من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل، أو مركز تدريب عمليّ، أخذوا يعطونني كتباً لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكنني ظللت أمام المحرك ـ أياً كانت قوته ـ وكأنني أقف أمام لغز لا يحل.

وفي ذات يوم قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع، كان ذلك أول الشهر، وكان معي راتبي، وجدت في المعرض محركاً قوة حصانين ثمنه يعادل مرتبي كله، فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك وكان ثقيلاً جداً، وذهبت إلى حجرتي، ووضعته على المنضدة وجعلت أنظر إليه، وكأني أنظر إلى تاج من الجوهر، وقلت لنفسي: هذا هو سر قوة أوروبا، لو استطعت أن أصنع محركاً كهذا لغيرت تاريخ اليابان، وطاف بذهني خاطر يقول: إن هذا المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى، مغناطيس كحذوة الحصان، وأسلاك، وأذرع دافعة، وعجلات، وتروس وما إلى ذلك، لو أنني استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك وأعيد تركيبها بالطريقة نفسها التي ركبوها بها ثم شغلته فاشتغل أكون قد خطوت خطوة نحو سر «موديل» الصناعة الأوروبية.

وبحثت في رفوف الكتب التي عندي، حتى عثرت على الرسوم الخاصة بالمحركات، وأخذت ورقاً كثيراً، وأتيت بصندوق أدوات العمل، ومضيت أعمل، رسمت المحرك، بعد أن رفعت الغطاء الذي

يحمل أجزاءه، ثم جعلت أفككه، قطعة قطعة، وكلما فككت قطعة رسمتها على الورقة بغاية الدقة وأعطيتها رقماً، وشيئاً فشيئاً فككته كله، ثم أعدت تركيبه، وشغلته فاشتغل، كاد قلبي يقف من الفرح، استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل في اليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل.

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: حسناً ما فعلت، الآن لابد أن أختبرك، سآتيك بمحرك متعطل، وعليك أن تفككه، وتكشف موضع الخطأ وتصححه، وتجعل هذا المحرك يعمل، وكلفتني هذه العملية عشرة أيام عرفت أثناءها مواضع الخلل، فقد كانت ثلاثاً من قطع المحرك بالية متآكلة، صنعت غيرها بيدي، صنعتها بالمطرقة والمبرد.

وبعد ذلك قال رئيس البعثة ـ وكان بمثابة الكاهن يتولى قيادتي روحياً[(١)] ـ قال: عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك، ثم تركبها محركاً، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك التحقت بمصانع صهر الحديد، وصهر النحاس، والألومنيوم، بدلاً من أن أعد رسالة الدكتوراه كما أراد مني أساتذتي الألمان، تحولت إلى عامل ألبس بذلة زرقاء وأقف صاغراً إلى جانب عامل صهر المعادن، كنت أطيع أوامره وكأنه سيد عظيم، حتى كنت أخدمه وقت الأكل، مع أنني من أسرة ساموراي، ولكنني كنت أخدم اليابان وفي سبيل اليابان يهون كل شيء، قضيت في هذه الدراسات والتمرينات ثماني سنوات، كنت أعمل خلالها ما بين عشرة وخمس عشر ساعة في اليوم، وبعد انتهاء يوم العمل كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة.

---

(١) ليتنا نحذو حذوهم فلا نرسل بعثة إلا بمرافق يعلمها أمور دينها.

وعلم «الميكادو» ـ الحاكم الياباني ـ بأمري فأرسل لي من ماله الخاص خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب اشتريت بها أدوات مصنع محركات كاملة، وأدوات وآلات، وعندما أردت شحنها إلى اليابان كانت النقود قد فرغت، فوضعت راتبي وكل ما ادخرته.

وعندما وصلت إلى«نجازاكي» قيل لي إن «الميكادو» يريد أن يراني، قلت: لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملاً، استغرق ذلك ٩سنوات، وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات (صنع في اليابان)، قطعة قطعة، حملناها إلى القصر، ودخل «الميكادو» وانحنينا نحييه وابتسم وقال: هذه أعذب موسيقا سمعتها في حياتي، صوت محركات يابانية خالصة، هكذا ملكنا «الموديل» وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوروبا إلى اليابان ونقلنا اليابان إلى الغرب(١).

ثانياً: الوصول إلى مراتب عليا في العبادة والزهد:

وهذا مَعْلَم بارز في حياة النبي ﷺ والصحابة ومن تبعهم بإحسان، يقول حذيفة رضي الله عنه:

«صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعويذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريباً مما

(١) مجلة المجتمع، العدد ٩٩٨.

ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه»[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه:

«صليت مع رسول الله ﷺ فأطال حتى هممت بأمر سوء، قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه»[٢].

وهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه على فراش الموت يذكر أموراً تدل على علو همته في العبادة والزهد، فروي عنه أنه قال: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا ولا طول المكث فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل، وظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلَق الذكر»[٣].

هذا وقد كان يعيش في دمشق، ولكنه علا بهمته عما فيها من مغريات وجمال.

وهذا الإمام مالك بن أنس رحمه الله إمام دار الهجرة قد روى عنه الإمام ابن القاسم[٤] هذه الحادثة: «كنت آتي مالكاً غلساً[٥] فأسأله عن

---

(١) أخرجه الإمام مسلم رحمه الله في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي ﷺ ودعاؤه بالليل.

(٢) المصدر السابق.

(٣) «حلية الأولياء»: ١/ ٢٣٩.

(٤) عالم الديار المصرية ومفتيها، أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العُتَقيّ بالولاء، المصريّ، صاحب الإمام مالك، كان ذا مال ودنيا فأنفقها في العلم، وله قدم في الورع والتألّه، ولد سنة١٣٢وتوفي سنة١٩١رحمه الله تعالى. انظر«سير أعلام النبلاء»: ٩/ ١٢٠ـ١٢٥.

(٥) انظر إلى هذه الهمّة العالية إذ يأتيه قبل الفجر، وفي أيامنا قلّ من يجلس مستيقظاً بعد =

مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه انشراح الصدر، فكنت آتي كلّ سحر، فتوسدت مرة في عتبته، فغلبتني عيني فنمت، وخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر به، فركضتني سوداء له برجلها وقالت لي: إن مولاك لا يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة ما صلى الصبح إلا بوضوء العَتَمَة[(١)]، ظنت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه»[(٢)].

وإذا أردت التوسع في أمثلة عبادة السلف وزهدهم فسيطول بي الأمر، وحسبي ما أوردته دليلاً على علو هممهم.

ثالثاً: البعد عن سفاسف الأمور ودناياها:

صاحب الهمّة العالية لا يرضى لنفسه دنايا الأمور بل يطمح دائماً إلى ما هو أفضل وأحسن، فتجده يترفع عن مجالس اللغو وإضاعة الوقت، وينأى بنفسه عنها.

يقول الإمام ابن الجوزيّ متألماً من حال من يقطع يومه وليلته في سفاسف الأمور:

«قد رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً، إن طال الليل فبحديث لا ينفع أو بقراءة كتاب فيه غزل وسمر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق، فشبهتهم

= صلاة الفجر إلى أن يصلي ركعتين بعد ارتفاع الشمس قدر رمح، وإذا طلب من أحد الدرس بعد الفجر يعتذر بأنه موعد غير مناسب، وهذا حتى في أيام الإجازات التي ليس فيها عمل صباحيّ مبكر يحتاج إلى راحة.

(١) أي: العشاء.

(٢) «ترتيب المدارك»: ٣/ ٢٥٠.

بالمتحدثين في سفينة وهي تجري وما عندهم خبر، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الزمان وتهيؤوا للرحيل، فالله الله في مواسم العمر، والبدارَ البدارَ قبل الفوات، ونافسوا الزمان»[١].

ولما فرّ عبد الرحمن الداخل[٢] ـ صقر قريش ـ من العباسيين وتوجه تلقاء الأندلس أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال: «إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردّها على صاحبها»[٣].

ويروي الأستاذ عبد الستار نوير قصة طريفة فيها عبرة فيقول: «قرأت للأستاذ أحمد أمين طرفة معبرة، قال: حُدثت أن جندياً ظريفاً رأى في مقهى رجلين يلعبان النرد، وكانت الساعة السابعة مساءً، فتقدم إليهما بكل أدب واحترام وحيّاهما ثُمّ سألهما:

- من أي وقت بدأتما اللعب؟

ـ من الساعة الرابعة.

- وإلى متى؟

ـ إلى الثامنة أو التاسعة.

---

(١) «قيمة الزمن عند العلماء»: ٢٧-٢٨.

(٢) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أمير الأندلس وسلطانها، أبو المُطرِّف الأمويّ المروانيّ ـ المشهور بـ«الداخل» ـ ولما سقطت دولة بني أمية هرب ودخل الأندلس فتملكها ٣٣ سنة، وبقي الملك في عقبة إلى سنة ٤٠٠، ولد سنة ١١٣ بتدمر، وتوفي سنة ١٧٢ بالأندلس رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٢٤٤ـ٢٥٣.

(٣) «نفح الطيب»: ٤/ ٤٣.

- وما هو عملكما؟

ـ مدرسان.

فانهال عليهما ضرباً ولكماً وقال: أما لكما عمل تعملانه، أو رياضة تقومان بها، أو خدمة اجتماعية تؤديانها؟».

ذكر الأستاذ القصة ثم قال معلقاً: «ليت لنا مشرفين من هذا القبيل يعزرون من أضاع وقته على هذا النمط، إذاً ما نجا من الضرب واللكم إلا القليل»(١).

إن الإسلام ـ وهو الدين الشامل الخاتم ـ قد أبيح فيه الترويح والتنفيس، ولكن أن يُخطأ في تقدير هذا الترويح فيُجعل هو الأصل، فهذا من الدنايا التي لا تُنزه عنها الأديان وترتفع عنها همة الإنسان.

رابعاً: صاحب الهمة العالية يُعتمد عليه، وتناط به الأمور الصعبة وتوكل إليه:

وهذا أمر مشاهد معروف؛ فإن كل رؤساء ومدراء الجمعيات والمؤسسات يطمحون للعمل مع صاحب الهمّة العالية ويطمئنون له ويسعدون به، كيف لا وهو عوض عن فريق من العاملين، وكذلك صاحب الهمّة العالية في الدعوة يكون بمثابة فريق من الدعاة، ويرفع الله به الدعوة درجات.

وقد قيل: «ذو الهمّة وإن حط نفسَه تأبى إلا العلوّ، كالشعلة من النار يخفيها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً»(٢).

(١) «الوقت هو الحياة»: ١٧٨.

(٢) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٥.

خامساً: صاحب الهمّة العالية يستفيد من حياته أعظم استفادة، وتكون أوقاته مستثمرة بنّاءة:

وهذا هو مطمع الصالحين ومراد العالمين ومجال المتنافسين، وقد كان السلف رحمهم الله يضربون أعظم الأمثلة في هذا المجال، وحسبي في هذا الأمر أن أورد مثالين:

أ ـ كان الإمام ابن عقيل الحنبليّ(١) يقول:

«إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح»(٢).

ب ـ ووصف الإمام النووي(٣) حياته لتلميذه أبي الحسن بن العطار(٤) فذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على مشايخه شرحاً وتصحيحاً: درسين في «الوسيط»، ودرساً في «المهذب»(٥)،

---

(١) الإمام العلامة البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغداديّ الحنبليّ المتكلم، صاحب التصانيف، ولد سنة٤٣١، وخالط المعتزلة فانحرف عن السنة، وكان يتوقد ذكاء، بحرُ معارف، وكان كريماً، توفي سنة ٥٠٣وكان الناس في جنازته يفوقون الحصر. انظر«سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٤٤٣ـ٤٥١.

(٢) «الوقت هو الحياة»: ١٧٨.

(٣) يحيى بن شرف بن مُرِّي، الإمام المشهور، توفي سنة ٦٧٦عن ٤٥ سنة. انظر ترجمته في «فوات الوفيات»: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨.

(٤) علي بن إبراهيم بن داود، أبو الحسن، من أهل دمشق، ولد سنة٦٥٤، وكان أبوه عطاراً وجده طبيباً، ألف مؤلفات عديدة، وباشر مشيخة المدرسة النورية٣٠سنة، توفي سنة٧٢٤رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٤/ ٢٥١.

(٥) كتاب في الفقه الشافعيّ لأبي إسحاق الشيرازيّ، شرحه الإمام النوويّ في كتابه «المجموع».

ودرساً في صحيح مسلم، ودرساً في «اللمع»(١) لابن جنّي(٢)، ودرساً في إصلاح المنطق، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين، قال: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله تعالى في وقتي»(٣).

وقال أبو الحسن العطّار: «ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يضيع له وقتاً لا في ليل ولا في نهار إلا في اشتغال حتى في الطرق، وأنه دام على هذا ست سنين، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق.

قلتُ(٤): مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه، والعمل بدقائق الورع، والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها»(٥).

وإليك ـ أخي القارئ ـ كلاماً مهماً لأحد الغربيين يوضح حال أهل الهمّة مع وقته:

قال د. ماردن: «كل رجل ناجح لديه نوع من الشِّباك يلتقط به نحاتات وقراضات الزمان، ونعني بها فَضَلات الأيام والأجزاء الصغيرة من الساعات مما يَكنِسه معظم الناس بين مهملات الحياة،

---

(١) كتاب في النحو.

(٢) إمام العربية، أبو الفتح عثمان بن جنيّ الموصليّ، صاحب التصانيف، له نظم جيد، توفي سنة٣٩٢عن قرابة ٦٣سنة رحمه الله تعالى. انظر«سير أعلام النبلاء»: ١٧/١٧ ـ ١٩.

(٣) «تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٤٧.

(٤) أي: الذهبي.

(٥) «تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٤٧.

وإن الرجل الذي يدخر كل الدقائق المفردة، وأنصاف الساعات، والأعياد غير المنتظرة، والفسحات التي بين وقت وآخر، والفترات التي تنقضي في انتظار أشخاص يتأخرون عن مواعيد ضرورية لهم، ويستعمل كلَّ هذه الأوقات، ويستفيد منها ليأتي بنتائج باهرة يدهش لها الذين لم يفطنوا لهذا السرالعظيم الشأن»[١].

سادساً: صاحب الهمّة العالية قدوة للناس:

صاحب الهمّة قدوة في مجتمعه، ينظر إلى حاله القاعدون وأنصاف الكسالى والفاترون فيقتدون بهمته، ويرون ما كانوا يظنونه أمراً مسطوراً في الكتب القديمة قد انتهى وعُدم من دنيا الناس، يرونه واقعاً متحققاً في حياتهم، فيظل هذا الشخص رمزاً للناس ومحل ضرب أمثالهم.

سابعاً: تغيير طريقة حياة الأفراد والشعوب:

يقول الشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين[٢] شارحاً المراد: «يسمو هذا الخلق بصاحبه فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور؛ فهو الذي ينهض بالضعيف يُضطهد أو يزدرى فإذا هو عزيز كريم، وهوالذي يرفع القوم من سقوط، ويبدلهم بالخمول نباهة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.

هذا الخلق هو الذي يحمي الجماعة من أن تتملق خصمها. . . أما

(١) «سبيلك إلى الشهرة والنجاح»: ٥٦.

(٢) محمد الخضر بن الحسين بن علي الحسنيّ التونسيّ، ولد سنة ١٢٩٣، عالم إسلاميّ وباحث، من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق، وتولى مشيخة الأزهر، وكان هادئ الطبع، وقوراً، خص قسماً كبيراً من وقته لمقاومة الاستعمار، توفي سنة ١٣٧٧ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/ ١١٣ ـ ١١٤.

صغير الهمّة فإنه يبصر بخصومه في قوة وسطوة فيذوب أمامهم رهبة، ويطرق إليهم رأسه حِطَّة، ثم لا يلبث أن يسير في ريحهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم»[١].

(١) «رسائل الإصلاح»: ٢/ ٨٨.

وسائل ترقية الهمّة

إذا عرفنا معنى الهمّة، ومراتبها، وأهميتها، فكيف السبيل لتنميتها والرقي بها؟

إن تطوير الإنسان لهمته والرقي بها أمر مطلوب، ويتأكد هذا المطلوب عند عقلاء الناس ومفكريهم ودعاتهم ومصلحيهم، وهذه جملة أمور تساعد ـ في ظني ـ على تطوير الهمم:

١ ـ المجاهدة:

فبدونها لا يتحقق شيء ولا تُخطى خُطَىٰ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾(١).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «أعرف من أصابه مرض من صداع وحمى وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غُلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال: إن هذا لا يحل لك، فإنك تعين على نفسك، وتكون سبباً لفوات مطلوبك»(٢).

فهذا رغم مرضه ـ يجاهد ليقرأ ويزداد علماً.

وقال الإمام عيسى بن موسى: «مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) «روضة المحبين»: ٧٠.

العامة في أكل هريسة السوق فلا أقدر على ذلك؛ لأجل البكور إلى سماع الحديث»[١].

وقال الإمام عبد القادر الجيلانيّ رحمه الله تعالى: «كنت أقتات بخرنوب الشوك، وقمامة البقل، وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت الضائقة في غلاء نزل بغداد إلى أن بقيت أياماً لم آكل فيها طعاماً؛ بل كنت أتبع المنبوذات أطعمها»[٢].

وهذا جندي من الجنود الغربيين يحدث عن مجاهدته في تعلم بعض الفنون، فيقول:

«تعلمت وأنا جندي بسيط بمرتب ستة بنسات في اليوم... ولم يكن لدي مال أشتري به مصباحاً أو زيتاً، وكان من النادر في ليالي الشتاء أن أحصل على نور ما عدا نور النار، وذلك أثناء نوبتي في الخدمة فقط، وكنت أضطر أن أتخلى عن مُشترى قسم من القوت الضروري لي؛ لأشتري قلم رصاص أو ورقاً ولو بقيت متحملاً آلام الجوع الشديد، ولم يكن لي دقيقة من الوقت أستقلُّ بها لنفسي، فكان علي أن أقرأ أو أكتب بين حديث وقهقهة وغناء وجَلَبة عدد لا يقل عن عشرين جندياً ممن لا يفكرون بشيء...

وكان مجموع ما يوفره كل منا بعد نفقاته بنسين في الأسبوع، وأتذكر أني احتلت مرة لتوفير نصف بنس بعد نفقاتي الضرورية اليومية، وصممت على أن أشتري به سمكة في الصباح، وكان الجوع قد بلغ مني مبلغه ولكنني لما خلعت ثيابي في الليل وجدت أن نصف البنس

(١) «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٢٩٨.

(٢) «الدلائل النورانية لطالب الربانية»: ١٥٤ـ ١٥٥.

قد ضاع، فغطيت رأسي بملاءتي الحقيرة وجعلت أبكي كالطفل».

ثم قال: «إذا كنت في وسط هذه الأحوال الصعبة أتمكن من تحصيل العلم، فهل يبقى في العالم شاب يجد لنفسه عذراً في القعود عن الدرس والتحصيل»(١).

٢ ـ الدعاء الصادق والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى:

فهو المسؤول سبحانه أن يقوي إرادتنا، ويعلي همتنا، ويرفع درجاتنا.

٣ ـ اعتراف الشخص بقصور همته وأنه لا بد له أن يطورها ويعلو بها:

وهذا أمر أوليّ نفسيّ لا مناص منه في هذا الباب، ومن ثَمّ لابد أن يعتقد أنه قادر على أن يكون من أهل الهمّة العالية، فهذان الأمران ـ الاعتراف بقصور الهمّة، واعتقاد إمكانية تطويرها ـ عاملان مهمان لا بد منهما في محاولة تطوير الهمة، وبدونهما لا يكون الشخص قد خطا خطوات صحيحة.

٤ ـ قراءة سير سلف الأمة:

أهل الجد والاجتهاد والهمّة العالية، الذين صان الله تعالى بهم الدين، فكم من إنسان قرأ سيرة صالح مجاهد فتغيرت حياته إثر ذلك تغيراً كلياً، وصلح أمره وحسن حاله.

يقول الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله تعالى: «أعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتدئ، ولا صاحب ورع فيستفيد منه المتزهد(٢)، فالله الله، وعليكم

---

(١) «سبيلك إلى الشهرة والنجاح»: ٣٥ـ٣٦.

(٢) يقول هذا عن أهل زمانه، فماذا نقول عن أهل زماننا؟ إلى الله المشتكى.

بملاحظة سير القوم، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم. . . ولقد نظرت في ثَبَت الكتب[١] الموقوفة في المدرسة النظامية[٢] فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثَبَت كتب أبي حنيفة، وكتب الحميديّ[٣]، وكتب شيخنا عبد الوهاب[٤]، وابن ناصر[٥]، وكتب أبي محمد الخشاب[٦]، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إني قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد في الطلب[٧].

فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سيرالقوم وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لايعرفه مَن لم يطالع، فصرت أستزري

---

(١) أي فهرست الكتاب.

(٢) وهي المدرسة المنسوبة إلى نظام الملك الوزير المشهور.

(٣) الإمام الكبير شيخ الإمام البخاريّ، عبد الله بن الزبير القرشيّ الأسديّ الحُميديّ المكيّ، أبو بكر، توفي بمكة سنة٢١٩رحمه الله تعالى. انظر«التقريب»: ٣٠٣.

(٤) الشيخ الإمام، الحافظ المفيد، الثقة المسند، أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد البغداديّ الأنماطيّ، ولد سنة٤٦٢، وجمع فأوعى، وكان حسن المعاشرة، سريع الدمعة، على طريقة السلف، توفي سنة٥٣٨ رحمه الله تعالى. انظر«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ١٣٤ـ ١٣٧.

(٥) الإمام المحدث الحافظ، مفيد العراق، أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد السلاميّ البغداديّ، ولد سنة٤٦٧، وقرأ ما لا يوصف كثرة، وحصل الأصول، وجمع وألّف، وبَعُد صيته، وكان فصيحاً مليح القراءة، قوي العربية، جم الفضائل، توفي سنة٥٥٠رحمه الله تعالى. انظر«سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٢٦٥ ـ ٢٧١.

(٦) الشيخ الإمام، العلامة المحدِّث، إمام النحو، أبو محمد عبدالله بن أحمد البغداديّ، ابن الخشاب، يُضرب به المثل في العربية، ولد سنة ٤٩٢، وقرأ كثير، وفاق أهل زمانه في علم اللسان، وكان له أحوال عجيبة في التبذل وقلة النظافة، توفي رحمه الله تعالى سنة ٥٦٧. انظر المصدر السابق: ٥٢٣ ـ ٥٢٨.

(٧) انظر إلى همة هذا الإمام القعساء، رحمه الله.

ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب ولله الحمد»[١].

وقال علي بن الحسن بن شقيق[٢]: «قمت لأخرج مع ابن المبارك[٣] في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث، أو ذاكرته، فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح»[٤].

وقال محمد بن علي السلميّ[٥]: «قمت ليلة سحراً لآخذ النوبة على ابن الأَخْرم[٦]، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً، ولم تدركني النوبة إلى العصر»[٧]. وهذا الخبر كلما قرأته تعجبت من همة أولئك الأطهار، جعلنا الله منهم.

٥ ـ مصاحبة صاحب الهمّة العالية:

إذ كل قرين بالمقارن يقتدي، والنظر في أحواله ـ وماهو عليه، وكيف يُختصر له الزمان اختصاراً نافع مفيد ـ.

وهذا من أعظم البواعث على علو الهمّة؛ لأن البشر قد جُبلوا على الغيرة والتنافس ومزاحمة بعضهم بعضاً، وحُب المجاراة في طبائع البشر أمر لا يُنكر.

---

(١) «قيمة الزمن عند العلماء»: ٣١.

(٢) المروزيّ، له ترجمة مختصرة في«الجرح والتعديل»: ٦/ ١٨٠.

(٣) عبد الله بن المبارك المروزيّ الحنظليّ ـ بالولاء ـ. ثقة ثبت، فقيه عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير. توفي سنة ١٨١ وله ثلاث وستون سنة. انظر «التقريب»: ٣٢٠.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٧.

(٥) لم أقف له على ترجمة.

(٦) مقرئ دمشق، العلامة أبو الحسن محمد بن النضر بن مُرالربَعيّ الدمشقي، ابن الأَخْرَم، كان يحفظ كثيراً من التفسير ومعانيه، وكانت له حلقة عظيمة بجامع دمشق، توفي رحمه الله تعالى سنة ٣٤١ وعاش ٨١ سنة. انظر «سيرأعلام النبلاء»: ١٥/ ٥٦٤ ـ ٥٦٦.

(٧) المرجع السابق: ٢/ ١٢٤٥.

٦ ـ مراجعة جدول الأعمال اليومي، ومراعاة الأولويات، والأهم فالمهم:

وهذا أمر مفيد في باب تطويرالهمّة، إذ كلما كان ذلك الجدول بعيداً عن الرتابة والملل كان أجدى في معالجة الهمّة، ومثال ذلك شخص اعتاد أن يزور أقاربه أو صحبه كل يوم، ويقضي الساعات الطوال معهم بغير فائدة تذكر، فمراجعة مثل هذا الشخص لجدول عمله تفيده أيما فائدة؛ بحيث يقلل من تلك الزيارات لصالح أعمال أخرى تعود على همته بالفائدة.

٧ ـ التنافس والتنازع بين الشخص وهمته:

أعني بهذا أن على مريد تطوير همته أن يضيف أعباءً وأعمالاً يومية لنفسه لم تكن موجودة في برنامج حياته السابق، بحيث يحدث نوع من التحدي داخل الإنسان لإنجاز ما تحمله من أعباء جديدة، ويجب أن تكون هذه الإضافة مدروسة بعناية وإحكام حتى لا يصاب الشخص بالإحباط واليأس.

ويجب عليه كذلك أن يحسن اختيار هذه الأعمال والأعباء الجديدة بحيث تكون مبلغة له إلى الكمال، «فمن كانت همته حفظ جميع كتب محمد بن الحسن(١) فالظاهر أنه يحفظ أكثرها أو نصفها»(٢).

فالتحدي الذي نشأ في نفسه بسبب رغبته في حفظ كتب معينة سيوصله إلى حفظ أكثرها، والله أعلم.

---

(١) محمد بن الحسن بن فَرْقد، العلامة فقيه العراق، أبو عبد الله الشيبانيّ الكوفيّ، صاحب أبي حنيفة، ولد بواسط ونشأ بالكوفة، وأخذ عنه الشافعيّ فأكثر جداً، وولي القضاء للرشيد بعد أبي يوسف، وكان فصيحاً إلى الغاية. توفي سنة١٨٩بالري رحمه الله تعالى. انظر«سير أعلام النبلاء»: ٩/ ١٣٤ ـ ١٣٦.

(٢) «تعليم المتعلم»: ٦٠.

٨ ـ الدأب في تحصيل الكمالات والتشوق إلى المعرفة:

فمن استوى عنده العلم والجهل، أوكان قانعاً بحاله وما هو عليه فكيف تكون له همّة أصلاً، قال ابن حجر[١] رحمه الله، يصف حال الإمام جلال الدين البُلْقِينيّ[٢]:

«ما رأيت أحداً ممن لقيته أحرص على تحصيل الفائدة منه، بحيث إنه كان إذا طرق سمعَه شيء لم يكن يعرفه لا يقر ولا يهدأ ولا ينام حتى يقف عليه ويحفظه، وهو على هذا مكب على الاشتغال، محب في العلم حق المحبة»[٣].

وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: «إن نفسي تواقة، وإنها لم تُعط من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ماهو أفضل منه، فلما أُعطِيَت مالا أفضل منه في الدنيا تاقت إلى ماهو أفضل منه ـ يعني الجنة ـ»[٤].

٩ ـ الابتعاد عن كل ما من شأنه الهبوط بالهمّة وتضييعها:

كثير من الصالحين تضيع طاقاتُهم في أمور لاتعود عليهم بالنفع بل قد يكون فيها الكثير من الضرر، فمن صور هذا التضييع:

---

(١) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ إمام الأئمة، أبوالفضل الكنانيّ العسقلانيّ المصريّ الشافعيّ، ويعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه، ولد سنة٧٧٣ بمصرالقديمة، ونشأ بها يتيماً وجد في العلوم حتى بلغ الغاية، وله المصنفات الحسنة، ولي بعض المناصب كالقضاء والحسبة والإمامة، توفي بالقاهرة سنة٨٥٢ رحمه الله تعالى. انظر«الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦ ـ ٤٠.

(٢) عبد الرحمن بن عمر بن سلامة العسقلانيّ الأصل، ثم البُلْقِينيّ المصريّ، أبو الفضل جلال الدين، من علماء الحديث بمصر، ولي القضاء مراراً وانتهت إليه رئاسة الفتوى بعد أبيه، وله مصنفات، توفي بالقاهرة سنة ٨٢٤. انظر«الأعلام»: ٣/ ٣٢٠.

(٣) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»: ٤/ ١٠٩.

(٤) «عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين»: ٣٤.

أ ـ كثرة الزيارة للأقارب بدون هدف شرعيّ صحيح، ولا غرض دنيويّ فيه منفعة وفائدة معتبرة.

ب ـ كثرة الزيارة للأصحاب والإخوان بدعوى الأخوة والتناصح، فيكثر في المجلس اللغو والمزاح وتقل الفائدة.

يقول الإمام الجوزيّ رحمه الله تعالى: «أعوذ بالله من صحبة البطّالين، لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما اعتاد الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد: خدمة، ويطيلون الجلوس، ويُجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني ويتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه واستوحش الوحدة، وخصوصاً في التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام؛ بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء والواجب انتهابُه بفعل الخير كرهتُ ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غُلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق»(١).

وكلام الإمام هذا ينطبق ـ في الجملة ـ على حال كثير من اللقاءات والاجتماعات التي يقوم بها الناس اليوم.

جـ ـ الانهماك في تحصيل المال بدعوى التجارة وحيازة المال النافع للإسلام وأهله، ثم لايلبث هذا الأمر أن ينقلب إلى تحصيل محض، وحب للدنيا والانغماس فيها، ومن ثَمّ يقسو قلب الشخص وتنحط همته.

---

(١) «قيمة الزمن عند العلماء»: ٢٨.

د ـ تكليف الموظف نفسه بعملين: صباحيّ ومسائيّ بدون حاجة أو ضرورة ملجئة، وإنما دفعه لهذا حُب هذه الدنيا والتمتع فيها.

هـ ـ كثرة التمتع بالمباح، والترف الزائد، والترفل في النعيم، وكل هذه الأمور من العوامل الفتاكة القاضية على الهمّة مهما قيل في تبريرها وتعليلها.

ذكر ابن حجر رحمه الله أن تاج الدين المراكشيّ ـ أحد فقهاء الشافعية[١] ـ كان قد «انقطع بالمدرسة الأشرفية ملازماً للقراءة والاشتغال، صبوراً على ذلك جداً، بحيث يمتنع عن الأكل والشرب[٢] والملاذ بسبب ذلك»[٣].

وهذه الأمور من المباحات قطعاً، ولكن ذلك الفقيه علم أن الإكثار منها والولع فيها سبب لسقوط الهمّة وضعف العمل.

وذكر السبكيّ[٤] أن أباه الإمام تقيّ الدين[٥] «كان من الاشتغال

---

(١) محمد بن إبراهيم بن يوسف، تاج الدين المراكشي، الفقيه الشافعيّ، ولد بالقاهرة، بعد السبعمئة، وتقدم في الفنون، كان طويل النفَس، كان مطموس العينين يبصر بإحداهما قليلاً، وكان يعطي الأجرة لمن يطالع له، توفي سنة ٧٥٢ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٢) أي: عن فضولهما.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٨٧.

(٤) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكيّ، أبو نصر تاج الدين الشافعيّ، ولد سنة ٧٢٧، وأمعن في طلب الحديث حتى مهر وهو شاب مع ملازمة الاشتغال بالفقه والأصول والعربية، انتهت إليه رئاسة القضاء والمناصب بالشام، وحصل له محن شديدة وهو ثابت، وكان كريماً مهيباً، توفي سنة٧٧١ رحمه الله تعالى. انظر«الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٩ـ ٤٢.

(٥) علي بن عبد الكافي بن علي السبكيّ، تقي الدين، أبو الحسن الشافعيّ، ولد بـ«سبك العبيد» بمصر سنة ٦٨٣، وتفقه وطلب الحديث وارتحل، ثم تولى قضاء =

على جانب عظيم بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره. . . كان يخرج من البيت صلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر، فيجد أهل البيت قد عملوا له فرّوجاً فيأكله ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب فيأكل شيئاً حُلواً لطيفاً، ثم يشتغل بالليل، وهكذا لا يعرف غير ذلك، حتى ذكر لي أن والده قال لأمه: هذا الشاب ما يطلب قط درهماً ولا شيئاً فلعله يرى شيئاً يريد أن يأكله فضعي في منديله درهماً أو درهمين، فوضعت نصف درهم، قالت الجدة: فاستمر نحو جمعتين وهو يعود والمنديل معه والنصف فيه إلى أن رمى به إليّ وقال: أيش أعمل بهذا؟ خذوه عني»(١).

وهذا مثال على أن الفتيان إذا أحسن توجيههم وتربيتهم ارتفعوا عن الترف والتنعم، وأخذوا بأسباب المعالي والرفعة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «قال لي يوماً شيخ الإسلام(٢) قدّس الله روحه في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة، فالعارف يترك كثيراً من المباح برزخاً بين الحلال والحرام»(٣).

هذا والذي لام عليه الإمام ابن تيمية تلميذه «شيء من المباح» فما بالكم بما نراه اليوم من تمتع الدعاة بمباحات ونعيم لا يعرفه الملوك السالفون.

= دمشق سنة ٧٣٩، وكان ينظم كثيراً، وشعره وسط، وله مصنفات كثيرة. توفي بالقاهرة سنة ٧٥٦ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٣/ ١٣٤ ـ ١٤٢.

(١) «طبقات الشافعية»: ١٠/ ١٤٤.

(٢) شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية، سيرته مشهورة، توفي سنة٨٢٨ رحمه الله تعالى. انظر«الدرر الكامنة»: ١/ ١٥٤ ـ ١٧٠.

(٣) «مدارج السالكين»: ٢/ ٢٦.

و ـ الاستجابة للصوارف الأسرية استجابة كلية أو شبه كلية: فنجد الشخص منهمكاً في تلبية مطالب زوجه وعياله وقد لا تكون مهمة في أحيان كثيرة، وقد يعترض معترض ويورد أحاديث لا تدل على ما ذهب إليه مثل «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»[١]، ومثل «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت**»[٢]، وغير ذلك، وإنما هذه الأحاديث في الحث على إحسان الخُلق مع الأهل وعدم تركهم وتضييعهم بالكلية كما لا يخفى، وقد دخلت علينا في حياتنا الأسرية كثير من التقاليد الغربية في أمر الاحتفاء الزائد بالأهل والأولاد، ودعوى ضرورة بناء مستقبلهم، وغير ذلك مما حاصله نسيان الكفالة الإلهية والضمان الربانيّ.

ز ـ التسويف:

وهو داء عضال ومرض قتال، إذ أن «سوف» جند من جنود إبليس، قال الشاعر:

ولا أدخر شغل اليوم عن كسل
إلى غدٍ إنّ يوم العاجزين غدُ

ح ـ الكسل والفتور:

«لا بد للمرء من البعد عن الكسل لأنه قاتل للهمّة مُذهب لها، وخاصة عند تقدم العمر وعجز الجسم، فهذا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري[٣]

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، وأخرجه كذلك الترمذيّ وابن حبان.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم.

(٣) زكريا بن محمد الأنصاريّ المصريّ، عُمِّر طويلاً ورزق بتلامذة نجباء، وبارك الله له في مصنفاته، توفي بالقاهرة عن مئة سنة، وذلك سنة ٩٢٦ رحمه الله تعالى. انظر «الكواكب السائرة»: ١/ ١٩٦ ـ ٢٠٧.

رحمه الله تعالى «كان يصلي النوافل من قيام مع كبر سنه وبلوغه مئة سنة أو أكثر، وهو يميل يميناً وشمالاً لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكبر والمرض، فقيل له في ذلك فقال: يا ولدي، النفس من شأنها الكسل وأخاف أن تغلبني وأختم عمري بذلك»(١).

وهذه أقوال تبين ما في العجز والكسل والفتور من آفات:

ـ «ما لزم أحد الدَّعَة إلا ذَلّ، وحب الهوينى يُكسب الذلّ، وحب الكفاية(٢) مفتاح العجز»(٣).

ـ وقال الصاحب(٤): «إن الراحة حيث تعب الكرام أودع لكنها أوضع، والقعود حيث قام الكرام أسهل لكنه أسفل»(٥).

ـ وقال الشاعر:

كأنّ التواني أنكح العجزَ ابنتَه
وساق إليها حين أنكحها مهرا

فراشاً وطيئاً ثم قال له: اتكئ
فقُصرا كما لا شك أن تلدا فقرا

(١) المصدر السابق: ١/ ٢٠٢.

(٢) أي: حب الاكتفاء بما عليه الإنسان وعدم الرغبة في الارتقاء.

(٣) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٨.

(٤) الوزير الكبير العلامة الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عباس الطالقانيّ، الأديب الكاتب، وزير الملك مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة. صحب الوزير أبا الفضل بن العميد ومن ثم شهر بالصاحب. كان شيعياً معتزلياً، تيّاهاً جباراً، فصيحاً متقعراً، مات بالري سنة ٣٨٥ عن تسع وخمسين سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٥١١ـ ٥١٤.

(٥) المرجع السابق.

ـ وقد قيل: «زُوِّج العجز التواني فنتج بينهما الحرمان»[١].

ط ـ ملاحظة الخلق:

أكثر الخلق مفرّطون، وهم في الغفلة غارقون؛ فهم صوارف عن الهمّة العلية حيث يُغتر بهم ويقلدون في تفريطهم، فالحذار الحذار من غفلة الغافلين والاغترار بها.

وقال الشاعر:

ترجو غداً وغد كحاملة
في الحيِّ لا يدرون ما تلد

«والإسراع في القيام بعمل من الأعمال يُزيل ما فيه من العناء، أما التأجيل فمعناه الإهمال، والعزم على العمل يصير مع الوقت عزماً على عدم العمل، وما أشبه من يعمل عملاً بمن يُلقي بذاراً في الأرض فإذا هو لم يعمله في حينه فإنه يبقي إلى الأبد بدون ثمرة، وليس صيف الزمان من الطول بحيث إن الأعمال المؤجلة تنضج ثمارها فيه»[٢].

«وإن للتأخر عواقب مشؤومة، فتأخر يوليوس قيصر عن قراءة رسالة وردت إليه كلفته خسارة حياته حين بلوغه مجلس الأعيان الرومانيّ، والكولونيل راهل قائد موقع ترانتون لما جاءه رسول يحمل إليه كتاباً متضمناً نبأ اجتياز واشنطن لنهر ديلاور كان يلعب بالورق فوضع الكتاب في جيبه ولم يفضّه إلا بعد انتهاء اللعبة، وللحال سار في

(١) المرجع السابق.
(٢) «سبيلك إلى الشهرة والنجاح»: ١٠٦.

مقدمة جنوده إلى ميدان القتال فقتل ثمّ أخذ رجاله أسرى، فتأخر بضع دقائق جَرَّ عليه خسارة الشرف والحرية والحياة»[١].

هذان مثالان على ما يمكن أن يجره التسويف، ولا تستهن أخي الداعية بعاقبته فإن التسويف في الدعوة وغزو القلوب قد يؤخر تَسنُّم الشرف بتمكين دعوة الله في الأرض، وقد لاتتاح الفرص المتوفرة الآن ـ على قلتها ـ في المستقبل فتعضَّ حينذاك أصابعك ندماً على ما فرطت فيه، وتُحصر الدعوة بسبب تسويفك أنت وأمثالك في مضايق لا عهد لها بها، والله الموفق.

(١) المصدر السابق، ص ١٠٤.

العلامات الدالة على علو همة الشخص

إضافة إلى كل ما ذكر يمكن أن نذكر التالي:

١ ـ تحرُّقه على ما مضى من أيامه وكأنه لم يكن قطُّ صاحب الهمّة المتألق المنجز لكثير من الأمور، وأكثر ما يكون ذلك على فراش الموت.

٢ ـ كثرة همومه، وتألمه لحال المسلمين وما يجدون من ظلم وعَنَت.

٣ ـ موالاته النصيحةَ وتقديم الحلول والاقتراحات ـ التي تقوم بالإسلام والمسلمين وتعزهم ـ لمن يأمل فيها التغيير ويرجو منهم الإصلاح.

٤ ـ طلبه للمعالي دائماً فيما يفعله أو يتعلمه أو يصلحه.

قال الأستاذ محمد الخضر حسين: «طالب العلم الذي لا يدع باباً من أبوابه إلا ولجه. . . يكون أعظم همة ممن لا يطرق منه كل باب، أو لم يعرج منه على كل مسألة قيمة، وطالب العلم الذي يخوضه بنظر حر ويتناول مباحثه بنقد وبصيرة يكون أعظم همة ممن يجمع مسائله حفظاً ويتلقاها كما يتلقى حاكي الصدى لا يكلفك غير إملائها عليه»(١).

---

(١) «رسائل الإصلاح»: ٢/ ٩٠ـ ٩١.

٥ ـ كثرة شكواه من ضيق الوقت وعدم قدرته على إنجاز ما يريده في اليوم والليلة.

وليست هذه الشكوى من نمط ما نسمع من ترداد كثير من الناس لها، لكنها شكوى حقيقة نابعة من عمل دؤوب يستغرق أوقات الشخص فيبث تلك الآهات الصادقة.

٦ ـ قوة عزمه وثبات رأيه وقلة تردُّده:

فهو إذا قرّر أمراً راشداً لا يسرع بنقضه بل يستمر فيه ويثبت عليه حتى يقضيه ويجني ثمرته، ولاشك أن كثرة التردد ونقض الأمر بعد إبرامه من علامات تدني الهمّة.

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأي أن تتردّدا

وقال الشاعر أيضاً:

لكلٍّ إلى شَأو العُلى حركات
ولكن قليلٌ في الرجال ثباتُ[1]

(١) الشأو: الطلب والسعي.

كيفية استثمار همة الناس

إذا عرفنا ذلك كله فيجب علينا أن نحسن استثمار الهمّة عند الناس، ونستخرج منهم دفائن الكنوز وخبايا الصدور والعقول.

والناس أمام المسلم الصالح ثلاثة أقسام:

صالح ملتزم بدينه، ومستقيم محافظ على الفرائض والواجبات، وثالث مضيع ضائع.

أما القسم الثالث فيترك لحين إفاقته.

وأما القسم الثاني، وهم المستقيمون المحافظون، ولكن في استقامتهم ومحافظتهم تخليط فتستثمر هممهم كما يأتي، والله أعلم.

١ ـ إن كانوا من ذوي اليسار والغنى يوجهون للمشاركة في أعمال الخير العامة مثل بناء المساجد، وإغاثة المنكوبين، وإقامة المنشآت النافعة ونحو ذلك، وخير ما يمكن أن يشاركوا فيه هو تلك الهيئات والجمعيات الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي، ولله الحمد، حيث إن الكوارث والنكبات التي تحيط بالعالم الإسلامي والتي توضحها وتتبناها تلك الهيئات كفيلة بإثارة نوازع الشفقة والخير فيهم، فينشطون للمساعدة بهمة جيدة.

٢ ـ إن كانوا من ذوي الدخول المتوسطة ـ وهذا حال معظم ذلك القسم وتلك الفئة ـ فيوجهون إلى سماع الدروس الطيبة، وخطب

الجمعة النافعة التي يؤديها خطباء مشهورون بالتأثير على العامة.

٣ ـ ومن الحلول الناجحة لهذه الفئة هو توجيه شبابها وتحميسهم للمشاركة في الجهاد؛ إذ كم سمعنا عن أشخاص من عامة الناس قد علت همتهم وارتقى بهم حماسهم حتى شاركوا في الجهاد الأفغانيّ ـ على سبيل المثال ـ وحسنت صلتهم بالله تعالى والتزموا هذا الدين، ولله الحمد.

٤ ـ التوضيح والتبيين لهم بأنهم يضيعون أوقاتهم فيما لا يُفيد، فلو قضوا ذلك في مجالات أجدى وأنفع لكان حسناً.

٥ ـ توجيههم للقراءة النافعة، إذ معظم تلك الطائفة أميّو الثقافة وإن كانوا يحملون شهادات جامعية، فقد عكف الناس للأسف على متابعة أخبار بعينها، وتركوا ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً، ويثير فيهم الغرام إلى دار السلام.

وأما القسم الأول فهو المعتمد عليه والمأمول منه الإصلاح والرقي بهذه الأمة، ويمكن استثمار همم هذا الصنف كما يأتي، والله أعلم.

١ ـ الانتساب إلى جمعية أو هيئة لها برنامج عمل محدد يُنجز من خلالها كثير من الأمور النافعة، وذلك مثل بعض الهيئات الإغاثية المنتشرة في العالم الإسلاميّ، أو جمعيات البر، أو لجان البر، أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك.

وليحذر الأخ من التأثر بما تشتمل عليه بعض هذه الهيئات من نوع خطأ، أو ميل قليل عن الحق، فيترك العمل كلية من أجل هذا.

٢ ـ الانتساب إلى جماعة إسلامية صالحة من الجماعات المنتشرة في العالم الإسلاميّ، وهي تعمل بجهد وإخلاص لإقامة دين الله

تعالى، والقائمون على تلك الجماعات لهم برامج محددة تصلح لاستثمار همم الشباب وإقامة عمل إسلاميّ نافع.

٣ ـ توعية الشخص المنصوح بأن يختار لنفسه مجالاً يبدع فيه ويبرز ويكون عطاؤه من خلاله بالغاً غايته، وهمته في إنجازه قوية عالية، فمن وجد من نفسه انصرافاً للعلم وتحصيله فليقبل عليه، ومن وجد منها ميلاً إلى الأعمال الخيرية و الإغاثية فليشارك إخوانه، ومن وجد منها حباً للجهاد ومقارعة الأعداء فلا يتوان، وليقدم على بركة الله تعالى، وهكذا.

❁ ❁

محاذير موجهة
لأهل الهمّة العالية

هذه المحاذير التي سأذكرها خاصة بأهل الهمّة العالية فقط، وليست لغيرهم من متدنّي الهمم أو متوسطيها، وذلك لأن فيها جملة من الأمور لا يفهمها غيرهم ولا يدركها سواهم.

وقد يقول قائل: إن بعض ما أذكره في هذا الصدد قد يخالف ما تعارف عليه كثير من أهل الصلاح والالتزام والدعوة من أن التوازن مطلوب والهمّة تكون بقدر، وأنا أوافقهم ولا أخالفهم، ولكن قد يبدو بعض ما أورده مخالفاً لمنطقهم الصحيح وليس الأمر كذلك:

١ ـ صاحب الهمّة تحلق به همته دائماً فتأمره بإنجاز كثير من الأعمال المتداخلة في وقت واحد، فليطعها بقدر ولا يستبعد ما تأمره به، وفي الوقت نفسه لا يقوم به كله بل يأخذ منه بقدر ما يعرف من إسعاف همته له بالقيام به.

وتزاحم الأعمال على الإنسان ومحاولة القيام بها مجتمعةً أمر لا ينكره أهل الهمّة العالية، ومثال ذلك رجل مسافر في قطار مع أهله للترويح والمتعة فهو في أثناء تجواله يتمتع بجمال الطبيعة، كما أن عليه أن يهتم بأطفاله وينبههم ويوجههم، ولعله بيده كتاب يقرؤه أو أمر ينجزه، وهو ـ أيضاً ـ يتكلم مع زوجته ويلاطفها، وتدور في مخيلته

عدة أفكار، وتحدث له كل هذه الأمور في وقت واحد وقد ينجزها على وجه مقبول، وكذلك أهل الهمّة تتزاحم عليهم الأعمال الكثيرة فينجزونها كلها أو معظمها.

وهناك محذور آخر خلال ذلك وهو أن:

٢ ـ صاحب الهمّة العالية معرض لنصائح تثنيه عن همته وتحاول أن تذكره دائماً بأنه ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ﴾، وأن صاحب الصنعتين كاذب والثالثة سارق، وهكذا، فالحصيف لا يلتفت لهذه النصائح إلا بقدر محدود؛ وذلك لأن موجهي هذه النصائح قد تنشأ نصائحهم هذه لحسد اعتراهم من حال المنصوح، أو لأنهم يجهلون ما يستطيع عمله هذا الرجل ذو الهمّة العالية من أمور لا تدركها أفهامهم، ولا تستطيعها هممهم.

قال ابن نباتة السعديّ:

أعاذلتي[١] على إتعاب نفسي
ورعيي في الدجى روضَ السهاد[٢]

إذا شام الفتى برق المعالي
فأهون فائت طيب الرقاد

٣ ـ وصاحب الهمّة معرض لسهام العين والحسد، فعليه بالأذكار المأثورة ليدرأ عن نفسه ما قد يصيبه من سهام القدر على يد الحساد.

---

(١) العذل: اللوم.
(٢) أي: تلومه على سهره الليالي.

٤ ـ وصاحب الهمّة قد تعتريه فَتْرة وضعف قليل لما يراه من تدني همم غالب الخلق، فلا يحزن لأجل هذه الفترة، وليوطن نفسه على الإحسان وعلو الهمّة مهما ضعف أو تخاذل مَن حوله، وأياً كان سبب الفترة التي تعتريه فهي أمر طبيعيّ يعتري العاملين والسالكين، وليتذكر حديث المصطفى ﷺ: «لكل عمل شِرّة[1]، ولكل شِرّة فَتْرة»[2].

٥ ـ وأهل الهمّة العالية قد يكونون مفرِّطين في بعض الأمور التي قد لا يرون فيها تعلقاً مباشراً بموضوع هممهم، وذلك مثل بعض حقوق الأهل والأقارب، فينبغي على من وقع في هذا المحذور أن يلتفت إلى إصلاحه ولو بالقدر الذي يُبعد عنه سهام اللائمين.

٦ ـ وقد تؤدي الهمّة العالية بصاحبها إلى أن يتحمس تحمساً اندفاعياً فيستعجل ويرتكب من الأخطاء ما كان يمكن تلافيه بقليل من التعقل وحساب العواقب، وعلى من وقع في مثل هذا أن يعرف السنن الكونية وأن الأمر لا يحسم بين عشية وضحاها، وليكن مثلُه سيدَ أولي الهمة العالية ﷺ فقد كان يوصي أصحابه رضي الله عنهم بالعمل والصبر، فالصبر لا غنى عنه لأهل الهمم.

٧ ـ وأهل الهمّة العالية قد يتعرضون لأمور تؤثر في هممهم وتطلعهم إلى معالي الأمور، وأعظم مثال على هذا التعرض للخلاف الحاصل بين الفقهاء بعين الذمّ والمقت، ونقدهم والإقلال من شأنهم، ومثاله أيضاً التعرض للجماعات الإسلامية العاملة على الساحة وذمها

---

(١) الشرّة: النشاط والهمّة، والفترة: الضعف والانكسار.

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري: ١/٥١، ورواه ابن أبي عاصم وابن حبان.

والتنقص من شأنها وإلصاق التهم بها بدون وجه شرعيّ معتبر في أحيان كثيرة، ويمضي هذا الأخ سحابة يومه وليله باحثاً عن الأخطاء متصيداً لها، ومثل هذا الشخص إن أصبح هذا الأمر ديدنه فستتخلف همته ولا شك وتقعد به عن معالي الأمور.

يقول الأستاذ محمد خضر حسين: «كبير الهمّة يستبين خطأ في رأي عالم أو عبارة كاتب فيكتفي بعرض ما استبان من خطأ على طلاب العلم ليفقهوه، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقط الكلام أو يَخفَّ إلى التبجح[١] بما عنده، وقد حدثنا التاريخ عن رجال كانوا أذكياء ولكن ابتلوا بشيء من المكروه، فكان عوجاً في سِيَرهم ولطخاً في صحفهم، ولو تحاموه لكان ذكرهم أعلى ومقامهم في النفوس أسمى، ومنزلتهم عند الله أرقى»[٢].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد، وعلم حدود المنزل، وأخس همم طالب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل وما لم ينزل، ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال، وقَلّ أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه».

٨ ـ صاحب الهمّة العالية لا بد له من المداومة على الأعمال التي تدوم ولا تنقطع:

---

(١) السرور.
(٢) رسائل الإصلاح: ١/ ٨٩.

وليتذكر صاحب الهمّة العالية أن أحبّ الأعمال إلى الله «**أدومها وإن قل**»(١)، فهمة متوسطة العلو تدوم خير من همة عظيمة متقطعة.

ولنسق إليك أخي ثلاثة أمثلة نهديها إليك فيها دلالة على ما نقول، وبها يختم هذا البحث إن شاء الله تعالى:

أما المثال الأول فهو الإمام أبو القاسم بن عساكر(٢) فقد قال عنه أبو المواهب بن صَصْرَى(٣): «لم أرَ مثله، ولا من اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلا من عذر، والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، قد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة وأباها بعد أن عرضت عليه، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم»(٤).

وهذا الشيخ كمال العباسيّ الكجراتيّ الهنديّ(٥)، كان «من عوائده

---

(١) أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في كتاب الرقائق: باب القصد والمداومة على العمل.

(٢) الإمام العلامة، الحافظ محدث الشام، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ الشافعيّ، ولد سنة ٤٩٩، وغلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه، ورحل ولقي المشايخ، وكان ديناً، صنف التصانيف المفيدة أجلّها «تاريخ دمشق»، توفي رحمه الله تعالى سنة٥٧١ بدمشق. انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٠٩ ـ ٣١١.

(٣) الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى الربعيّ التغلبيّ الدمشقيّ، أبو المواهب، من حفاظ الحديث، وكان محدث دمشق، له بعض المصنفات، توفي سنة ٥٨٦ عن قرابة ٥٠ سنة رحمه الله تعالى. انظر«الأعلام»: ٢/ ٢٢٥.

(٤) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٣٣٢.

(٥) الشيخ العالم الكبير المفتي كمال محمد العباس الكجراتيّ الهنديّ، أحد العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية، ولد ونشأ بأحمد آباد، واشتغل بالعلم من صباه =

أنه كان يستيقظ في الليل إذا بقي ثلثه فيغتسل ويتهجد، ويقرأ سبعة أجزاء من القرآن في الصلاة، ثم يدعو بالأدعية المأثورة، ثم يذكر الله سبحانه، ثم يصلي الفجر، ثم يشتغل بتلاوة القرآن إلى صلاة الإشراق، ثم يصلي ويجلس للدرس والإفادة فيدرس إلى زوال الشمس، ثم يتغدى ومعه جماعة من المحصلين عليه، ثم يقيل ساعة، ثم يصلي الظهر، ثم يجلس للإفتاء فيشتغل به إلى العصر، ثم يصلي، ثم يشتغل به(١)، ثم يصلي ويقبل على أصحابه، فيتحدث معهم إلى العشاء، ثم يدخل في حجرته ويشتغل بمطالعة كتبه التي يدرسها إلى الثلث الأول من الليل، ثم يدخل في المنزل، وكان من الخامسة عشرة من سنه إلى أربع وخمسين صرف عمره على هذا الطريق»(٢)

وقال أبو العباس ثعلب(٣): «ما فقدت إبراهيم الحربيّ(٤) من مجلس لغة ولا نحو، من خمسين سنة»(٥).

= حتى برع وفاق أقرانه، وولي الإفتاء فاشتغل بالفتيا والتدريس ٣٠ سنة، توفي سنة ١٠١٣. انظر «الأعلام في تاريخ الهند من الأعلام»: ٥/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(١) أي: الإفتاء.

(٢) «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»: ٥/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٣) العلامة المحدِّث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد، الشيبانيّ بالولاء، البغداديّ، صاحب التصانيف، ولد سنة ٢٠٠، وكان ثقة حجة، ديناً صالحاً، مشهوراً بالحفظ، عُمِّر وأصم، صدمته دابة فوقع في حفرة، ومات فيها سنة ٢٩١ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٥ ـ ٧.

(٤) الشيخ الإمام، الحافظ العلامة وشيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم البغداديّ الحربيّ، صاحب التصانيف. ولد سنة ١٩٨، كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مميزاً للعلة صنف كتباً كثيرة، توفي سنة٢٥٨. رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ٣٥٦ ـ ٣٧٢.

(٥) نزهة الفضلاء: ٢/ ٩٨٢.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعلني والقارئين من أهل الهمّة العالية، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.